الدين عند ويليام جيمس(William James)

بن صابر محمد

قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، وهران 02.

شهد القرن الثامن عشر دفعة قوية جاءت على يد فلاسفة التنوير الفرنسيين، كما شهد القرن التاسع عشر دفعة أخرى جاءت من الرومانسية الألمانية، إلا أن منتصف القرن التاسع عشر قد شهد إنتعاشا فلسفيا، جاء رافضا للتقاليد الأوربية والأكاديمية السائدة.

في غمرة هذا الإنتعاش الفلسفي برز أول مذهب فلسفي فكري يمكن أن ينتسب إلى الأرض الجديدة، إنه المذهب العملي البراغماتي. ليتبلور خلال تطوره التاريخي بشكل فكر رسمي ساد القارة الأمريكية والعالم وليصبح بعد ذلك الصياغة الحقيقة للفكر الأمريكي ولاسيما فكرها الفلسفي والديني المعبر عن الثقافة الأمريكية المعاصرة، ليطلق عليه بعد ذلك بالفكر البراغماتي الجديد، ليكون بذلك واحدا من أهم الأسس التي أنبنى عليها الفكر الفلسفي الأمريكي، لكون هذا الفكر يركز على المنفعة في الأفكار والنظريات مهما تكن هذه الأفكار إذ الغاية والنجاح، هما الحكم والفاصل في قياس مدى أهمية الفكرة ونفعها والنتائج المتمخضة .

نتيجة لهذا أصبح الفكر الأمريكي فكرا براغماتيا، وهو في جوهره نهج محافظ يرى من حقه إتباع كل وسيله ممكنة في سبيل الوصول إلى حقه في البقاء وأن المصلحة والمنفعة والذاتية هي معيار الصدق والأخلاق، فبهذا أصبح الفكر البراغماتي ترجمة سلوكية حقيقية للفكر الفلسفي الأمريكي والسياسة الأمريكية المعاصرين.

يقول ألكسي دي توكفيل Alexis de Tocqueville: "أن الفلسفة لم تؤخذ بأي قرن من قرون عالمنا المتحضر بصورة جدية، بقدر ما أخذت بها في الولايات المتحدة الأمريكية وربما يعود هذا إلى أن الفلسفة قد بدت على درجة كبيرة من الغموض وبصورة بعيدة للغاية عن إهتمامات دولة ناشئة قوية"[1].

الفكر الإنساني وليد بيئته فتاريخ الفلسفة يضعنا أمام العلاقة القائمة بين فكر الإنسان وبيئته الإجتماعية، فالفلسفات القديمة في مجهوداتها الفكرية نتاج العلاقة مع الفكر الأسطوري والديني. لعل التداخل القائم بين الطبيعة والفكر هو الأساس الذي ينبعث منه تفكير الإنسان لهذا نجد تمايزا في فلسفات الشرق القديم عن الفلسفات اليونانية ليس تمايز في الموضوعات وإنما تمايزا في الطروحات والنتائج وهذا ما ينطبق على كل الفلسفات اللاحقة.

على ضوء هذا التأسيس سنحاول أن نعرج على مكانة الدين في الفلسفة البراغماتية مركزين على دراستنا لنموذج مهم في الفلسفات الأنجلوساكسونية، رائد البراغماتية المفكر الأمريكي ويليام جيمس William James الذي كان له الدور الفعال في نشر البراغماتية.

البحث عن الدين هو بحث مستمر لا يتوقف على زمن معين ولا على مكان معين بل أينما وجد الإنسان وجدت مشكلة الدين بهذا كانت أهمية هذه المشكلة بالنسبة للإنسان عموما وللفلاسفة خصوصا، ومن أهمهم الفلاسفة البراغماتيين حيث يعد وليم جيمس واحد ممن شغلتهم هذه المشكلة بطرح متميز وخاص فإلى جانب كل التفسيرات قدم لنا جيمس نموذجا جديدا لمفهوم الدين إختلف فيه عن غيره من الفلاسفة، وقد تجاوز به الكثير مما جاءت به الفلسفات قبله، وهذا ما حفزنا على تبنيه موضوعا لبحثنا وسوف نتعرض له لاحقا وهذا ما تعبر عنه إشكالية الموضوع في صيغتها التالية:

ما الدين؟ ما التجربة الدينية عند جيمس؟ ما علاقة البراغماتية بالدين؟ إذا كانت البراغماتية تنطلق من المحسوس والمادي عبر التجربة للوصول إلى نتائج تعود بالنفع على الإنسان فهل الدين يقودنا إلى نتائج عملية نافعة؟ هل المنهج البراغماتي منهج ديني أم منهج علمي؟

ظاهرة الدين صاحبت الإنسان في جميع العصور ومند فجر التاريخ تميز الإنسان بالتدين فإذا كان أرسطو Aristote قد عرف الإنسان بأنه حيوان ناطق أي مفكر فقد عرفه غيره من الفلاسفة بأنه حيوان متدين فذهب هيغل Hegel إلى القول أن الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون له دين، وأن الحيوانات تفتقر إلى الدين بقدر إفتقارها إلى القانون والأخلاق ". فالدين ليس مرحلة منقضية من تاريخ الفكر الإنساني بل هو سمة أصلية في هذا الفكر لهذا يعتبر الدين مصدرا بدائيا للثقافة الإنسانية، فالبشرية تؤمن بوجود إله وتسعى إلى بلوغ هذه الحقيقة، ويرى بعض الباحثين أن فكرة الإله إذا أخذت بمدلولها الضيق فإنها تترك كثيرا من الأديان خارج دائرة التعريف المعتاد للألهة من هنا يرى مؤسس الأنتروبولوجيا في بريطانيا إدوارد تيلور Edward Taylor [*] في كتابهprimitive culture:"إن المطلب الأول في الدراسة المنهجية

لأديان الشعوب البدائية هو وضع تعريف بدائي للدين ذلك أن التوكيد على الإيمان بكائن أعلى من شأنه أن يخرج المعتقدات البدائية من دائرة الدين، لأن مثل هذا الإيمان هو مرحلة متطورة من الحياة الدينية، من هنا فإن الأفضل أن نضع حدا أدنى لتعريف يقتصر على الإيمان بكائنات روحية"[2].

ضبط مفهوم الدين أمر بالغ التعقيد كونه مرتبط بالحياة البشرية فهو يمس الإنسان في حياته وأخلاقه وسلوكه وعاداته، فتحديد تعريف مقنع للدين صعب المنال كما يقول c.c.web: "الدين لا يمكن تعريفه"، ويرى غيره أن "البحث في التعريفات المتعددة للدين لن يكون سوى عملية تجميع للمعلومات أكثر منه تقديم تعريف جديد للدين"[3].

يعتبر جيمس عالم نفساني أمريكي وفيلسوف براغماتي بروتستانتي فلسفته فيها جانبين جانب علمي وجانب ديني، وقد أسس مذهبه البراغماتي محاولا الوقوف وسط بين المذهب التجريبي الذي يعتبر شديد الإخلاص للوقائع الجزئية والأشياء المحسوسة شديد الإهتمام بالتجارب والملاحظات لكن أهمل القيم الخلقية والدينية في الإنسان، أما المذهب العقلي يهتم بالحاجات الروحية للإنسان لكنه يتنكر للوقائع الجزئية والأشياء التجريبية. حاول جيمس أن يتوسط بين الإتجاهين ويحقق الإخلاص للواقع والتجربة ويعطيه الإيمان بالقيم الروحية في الوقت نفسه، من هنا تأسست فكرة المذهب البراغماتي الذي يحتفظ بالدين كالعقلين ويحتفظ بالإخلاص للوقائع كالتجريبيين. النقطة الأساسية في فلسفة جيمس الدينية هي حق الإعتقاد لكل شخص، وبعد الإعتقاد هو الإيمان بشيء يمكن الشك فيه من ناحية نظرية أوهو الرغبة في العمل فالإعتقاد هو الإستعداد والتأهب للعمل[4].

يرى أن الإعتقاد بداية كل موقف فلسفي وغير فلسفي وليس الإقناع والعقل، فطريق العقل إما أن ينتهي إلى الشك وإما إلى الفلسفة الواحدة أو المطلقة وكلاهما لا يلاءم الحياة الدينية.لا يحاول جيمس إثبات وجود الإله ولكنه يناقش الواقع مباشرة والتجربة الدينية واقع ولا توجد تجربة واحدة فالتجارب الدينية توجد بقدر ما يوجد في العالم من أفراد، فالدين تجربة فردية وأن جوهرها العاطفة الدينية وليس الطقوس[5].

الشعور الديني شعور باطني بالمشاركة في موجود أعظم هو الشعور بالإنسجام والسلام وأن التجربة الدينية أكثر واقعية من التجربة العلمية لأنها تبدأ بالجسم أي بالعاطفة والإحساس والفكر والتجربة العلمية تبدأ بالمجرد.

العلم تجربة لكن الدين واقعة حية نعيشها والإله موجود لأن فرض وجوده نافع ولكن المشكلة هي مشكلة التوفيق بين فكرة وجود الإله وبين غيرها من الأفكار ذات التأثير.

الإله في التجربة الدينية هو أنت، فهو متناه ومن تم لا يحيط بكل شيء، والإله هو باطن الأشياء فهو المثال ومن تم لا يحتوي كل الأشياء.

إذن الإله ليس مسؤول عن الشر بل بالعكس فهو شريكنا الأعظم في محاربة الشر لذلك يتدخل الإله لتغيير مجرى الأحداث، فالمعجزات دليل وجود الحرية في صميم العالم [6]. يقول وليم جيمس في بداية كتابه حقائق التجربة الدينية the varieties of Religion Experience :"رغم أنه من غير الحكمة وضع تعريف للدين ثم المضي في الدفاع عنه في وجه كل الإعتراضات، فإن هذا لن يقف حائلا دون قيامي بتقديم وجهة نظر محدودة(...) فالدين الذي أعنيه هنا، هو الأحاسيس والخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم، وما تقود إليه من تصرفات. وتتعلق هذه الأحاسيس والخبرات بنوع من العلاقة يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعتبره إلهيا.." [7].

من خلال قوله يكشف لنا الدين عن حقيقة الإنسان من زاوية بعيدة عن كل المتاهات وحتى الدين فقد أقامه على التجربة، فحاول أن يثبت أن إعتناق الدين والإيمان بالإله حق لأنه يتحول عند المؤمن إلى سلوك ناجح لا حياته، فالإيمان يساعد صاحبه على إحتمال الكوارث ويجعله أقدر على الصبر والعمل بعكس الإلحاد الذي يدفع بصاحبه إلى الإنتحار إذا أصابته كارثة.

يمكن القول أن مشكلة الدين ترتبط بمسائل تاريخ الفلسفة أي أن المشكلة الدينية هي قديمة قدم الفكر الفلسفي، فقد تكلم أفلاطون Platon عن مثال الخير وعالج أرسطو Aristote فكرة القوة والفعل والعلة الأولى والمحرك الأول، أما في الفلسفة الحديثة فقد إصطنع ديكارت Descartes فكرة الخالق والكامل واللامتناهي ليؤكد وجود الذات الإلهية.

الدين يعتمد على الإيمان أولا ثم على العقل الذي يبقى في حظيرة الإيمان والعاطفة ولا يخرج عن نطاقها، والبحث الفلسفي النسقي في الدين ظهر مع الفيلسوف الألماني[*] **إيمانويل** كانط **Emmanuel Kant** في كتابه"الدين في حدود العقل وحده"سنة 1793 الذي قدم فيه تفسيرا عقلانيا نقديا للدين بشكل كلي من منظور العقل النظري والعقل العملي وأخضع فيه المعتقدات الدينية وعلاقة الإنسان بالإله، يرى أن الدين هو المصدر البعيد الذي يبرر الأخلاق كما أن الإله هو المصدر الديني لفكرة الواجب الأخلاقي، وفكرة الذات أو النفس والعالم أو الإله هي أفكار أساسية في الذهن تتصل بمبادئ كلية وعامة في مدركاتنا وتعقلاتنا[8]. لكن كيف تصور جيمس الدين؟

فقد المجتمع الأمريكي الثقة في الصور والنماذج القديمة للحياة الدينية نتيجة الحرب الأهلية فسعت للتغيير والبحث عن عقيدة دينية جديدة، لا تتناقض مع نظرة الإنسان الحديثة للحياة وظهر دور جيمس في وضع تعبير جديد لهذه الروح الدينية المضطربة، حيث كتب كتاب"أنواع الخبرات الدينية" وضع فيه التجربة الدينية الفردية بإعتبارها المحور الرئيسي للدين، هذا ما أثر على كثير من علماء النفس والفلاسفة حيث تغيرت نظرتهم إلى الدين وإتجه الكثيرون من حملة لواء المذهب التطوري إلى إعادة نظرتهم الدينية بل قام البعض بكتابة لاهوت مسيحي جديد.

يعتبر وليم جيمس المنظر الثاني لهذا التيار الفكري. كيف أسس للفكر الديني؟ كيف ربط بين المعتقدات؟ هل الدين يتحقق من خلال التجربة؟ هل الديانة الحقيقية هي التصوف؟ ما قيمته عند جيمس؟

ساهم جيمس في تطور الفكر الفلسفي الأمريكي وتعتبر فلسفته متنوعة متجددة فهو يؤمن بالتقدم، والفلسفة الحقيقية هي الفلسفة المتفتحة الفعالة التي لا تصدر حكما نهائيا قاطعا وتجريبيته تختلف عن لوك أو هيوم.

يدعو جيمس إلى فلسفة التقدم فهي فلسفة براغماتية تنادى إلى تجريبية أصيلة تختلف عن التجربة الإنجليزية، وصاحب رسالة إنسانية إهتم بشخصية الفرد ونادى بالحرية في التفكير والحياة والعمل وكان يدعو إلى التسامح بين الأفراد.

البيئة التي نشأ فيها كانت بيئة دينية محافظة خاصة أبوه هنري جيمس الذي كان صوفي متدين فقد جمع بين الجد الديني العميق والفطنة اللامعة، فالعائلة التي تربى فيها كانت عائلة دينية لهذا نجده يميل إلى الدين والتدين[9]. فالدين صدى أوسع في حياته وبتالي الطابع العام لفلسفته طابع ديني فكانت دراسته للدين دراسة سيكولوجية ولم تكن دراسته رجل دين أو كعالم في تاريخ الأديان، فحاول تطبيق المنهج البراغماتي على أساس التجربة الدينية.

يقول جيمس"أخشى أنني توقفت عن أن أكون عالما نفسيا وأصبحت مقصورا على أن أكون أخلاقيا وميتافيزيقيا"[10]. بحث جيمس الدين على أساس سيكولوجي وليس على أساس ميتافيزيقي والنقطة الأساسية في فلسفته الدينية هي حق الإعتقاد لكل شخص.

الإعتقاد يعني الإيمان بشيء يمكن الشك فيه من ناحية نظرية أو هو الرغبة في العمل والإستعداد له وقد دافع عن الدين حيث نجده يذهب إلى أن العلاج الناجح هو الإيمان الديني[11]. Worry للقلق فالشجاعة وتحمل الحياة تستمر لمن يعتقد في الدين.

يرى جيمس أن لكل شخص حق مطلق في الإعتقاد والإيمان وهناك طريقان للإعتقاد طريق العقل وطريق الوجدان كما وضحه في قوله:" إن إعتقادنا في بعض المسائل التي أمنا بها أثر بفعل طبائعنا الوجدانية والإختيارية وأن إعتقادنا في بعض أخر منها أثر بمجهوداتنا العقلية"[12].

ذهب جيمس إلى أن العقل نعتمده في إعتقادنا، لكن هناك طرق أخرى مثال الإرادة أو الرغبة أو الوجدان، وعامل الإختيار هو الذي يحدد إعتقادنا إلى حد كبير هذا يعنى أن طبيعتنا غير العقلية تؤثر بشكل واضح في معظم أرائنا ومعتقداتنا[13].

أعطى جيمس أهمية ضرورية للإيمان الديني الذي يثبته الوجدان لهذا فقد رفض فصل الإرادة والعقل عن العاطفة، إن قيمة الإعتقاد الديني تتوقف على ما يحققه من نتائج عملية على سلوك الفرد، فالإعتقاد الديني يكمن في كونه تمثيل يطابق الواقع تقريبا فصحة المعتقدات الدينية تتوقف في القدرة على التعامل مع أنواع من الظروف في حياة الإنسان.

النتائج التي يحققها الدين لا تكون أنية، لكنها مستقبلية تعطي لحياتنا صبغة من التفاؤل والطمأنينة مثل فكرة الإله التي تعطي الأمل، مما يؤدي ذلك إلى تغير في مجرى الحياة.

يعتبرالإعتقاد من أهم المواضيع التي شغلت الكثير من عقول الفلاسفة عبر العصور ومن بين المفكرين الذين كرسوا جزءا رئيسيا من فلسفتهم لشق طريق الإعتقاد الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس الذي جعل من البراغماتية دربا للوصول للإيمان، وإتخد من الإرادة أساسا للإعتقاد بمؤلفه الشهير "إرادة الإعتقاد" الذي كتبه سنة1895 وقد ذكر فيه ثلاثة أبواب:the will to believe باب يعالج الصدق العقلي والتعددية والذاتية، فأما الصدق العقلي فيمس نظرية المعرفة والتعددية تمس الميتافيزيقا والذاتية تمس الأخلاق.

جيمس فيلسوف براغماتي ذو نزعة إنسانية، كانت بدايته علمية لما يحقق العلم لمستقبل الإنسان هذا الأخير ينطلق من سلوكاته وعواطفه الذاتية لهذا يجب أن نجد مخرجا مريحا من هنا ينطلق الإعتقاد الديني عنده والذي يؤدي إلى الراحة والإنسجام النفسي الذي يساعد الإنسان على تجاوز كل الصعوبات في حياته[14].

الإعتقاد عند جيمس محدد بموضوعات لا نستطيع أن نتوصل فيها لنتيجة بالفعل المجرد ولكننا لا نشك في نتائجه العملية، ويرتبط الإعتقاد بالإرادة حيث يذهب جيمس إلى القول:"إذا كانت الفروض الدينية في كل أجزائها بما فيها هذا الجزء فإن العقل الخالص بإعتراضه على الإعتقاد يعد من السخف، كما يصبح تدخل بعض طبائعنا العاطفية مطلب منطقي، لذلك لا أتفق مع طريقة الشك من أجل السعي وراء الحقيقة أو أن أوافق على إخراج الإرادة من هذا الموضوع ولا أستطيع أن أفعل ذلك لهذا السبب الواضح وهو أن كل قاعدة للتفكير تمنعني إطلاقا من الاعتراف بأنواع معنية من الحقائق لوكانت تلك الأنواع موجودة في الواقع تكون قاعدة غير معقولة"[15].

نظرة جيمس في الإعتقاد الديني لها صيغة فردية والمعتقدات لا يبررها العقل ولكن تبررها المنافع العملية التي تنتج عنها، فهي لا تتضمن إيمانا إعتباطيا لا يميز بين الصحيح والفاسد من المعتقدات.

يرى جيمس أن للمعتقدات الدينية أثرها البالغ في حياة أصحابها فأثرها نافع وعندما قارن بين المعتقدات توصل إلى نتيجة، أن الإيمان الذي لا يتزعزع سند قوي لتأييد صدق قضية ليس في وسعنا أن نبررها تبريرا عقليا.

الإيمان الذاتي عاملا فعالا في النتيجة التي يحققها الفرد وبدونه لن يستطيع أن يعرف ما إذا كان من الممكن له إشباع رغباته أو تحقيق مثله يقول جيمس:" إذا كانت حياتك في خطر وكنت تخشى الغرق قبل أن تصل إلى الشاطئ فينبغي لك أن تعتقد بوجه حاجتك، فبهذا الإعتقاد وحده يمكنك أن تقضي هذه الحاجة وإذا أبيت الإعتقاد فقد تكون على صواب ولكنك ستهلك لا محال، خير لك إذن أن تعتقد فسوف تكون على صواب لأنك ستنقد نفسك"[16]. نتسائل هنا هل إعتقادنا مرتبط بحاجاتنا؟ هل سيؤدي بنا إلى النجاح؟

يؤمن جيمس في هذا العالم بالإعتقاد فهو الذي يحدد لنا الطريق الصحيح في النجاح وإذا تخلينا عنه سوف نخسر، في هذا المضمار نجد بيرس يذهب إلى أن المعتقدات في الحقيقة قواعد للعمل يمكننا أن نشرع في تحديد السلوك الذي نرى فيه معنى هذه المعتقدات فإذا كان المعتقد صادق صحيح يكون ناجحا وإذا كان كاذب يكون فاشل لهذا تتماشى معتقداتنا إستنادا إلى أفكارنا.

الإعتقاد الديني عند جيمس لا يخرج عن كونه إعتقادا يؤدي إلى الراحة والإنسجام النفسي الذي يساعد الفرد، فيما يتعرضه من مشاكل وصعوبات في الحياة والإعتقاد محدد بموضوعات لا نستطيع أن نتوصل فيها لنتيجة بالعقل المجرد، ولكننا لانشك في نتائجها العملية وبتالي فهو لا يعترف بحلول عقلية لا تؤدي إلى نتائج في الواقع.

إرادة الإعتقاد في نظر جيمس هي شعور الإنسان بالحاجة إلى قبول بعض المعتقدات التي لا يرفضها العقل، والتي إنما تتبث مشروعيتها من الفوائد الحاصلة منها مثل الحاجة إلى الثقة بالنفس التي متى قبلها الإنسان قوت من عزيمته وزادت قدرته فحصل مراده وتبث له بذلك أنه كان محقا في إعتماده الثقة بالنفس كمبدأ.

يؤكد جيمس في كتابه إرادة الإعتقاد حقنا في أن نؤمن بالإله حتى بدون برهان مطلق لأننا نستطيع عن طريق قبول فكرة الإله أن نرى حياتنا ونصل إلى الإلهام في سلوكنا الفعال الذي ينقصنا لولا قبول هذه الفكرة. نتساءل ما طبيعة عقيدة جيمس الدينية؟

يبدو أن جيمس فيلسوف براغماتي ذو نزعة إنسانية محبا للحياة وسعيدا بالحرية يسعى إلى تحقيق السعادة الإنسانية، ولهذا تبقى براغماتيته تصطبغ بصبغة ذاتية شخصية ينبغي أن نشير إلى حقيقة أن الإعتقاد الديني عند جيمس لا يعني أنه يؤمن بالدين بطريقة تقليدية وراثية.

من هنا يمكن أن نتفق مع [*] رالف بارتون بيري Ralph Barton Perry حيث يرى أن دين جيمس لم يتخذ شكل العقيدة التعسفية الجازمة، ولا شكل الولاء لمذهب كان جيمس جوهريا رجل إيمان وإن لم يكن مشايعا لأية كنيسة أو مذهب أو ملة أو عقيدة ضد الباقي"[17]، هكذا يمكن القول أن جيمس يتميز بفلسفة دينية خاصة فهو ليس لا هوتيا بل فيلسوفا دينيا، وجوهر فلسفته رفضها لوجود قوة عليا هي المسؤلة عما يحدث وقد وضع أساسين لعلم الدين، فالأول أساس وجداني يمثل سلوك الفرد ويتحدد إما بالفكر أو بالوجدان ويقصد جيمس بهذا الأخير أن الإنسان يجد طبيعته البشرية دافعا إلى الإعتقاد بالدين الذي يشعر صاحبه بالسعادة والتفاؤل في حياته.

أما الثاني فهو أساس ذهني بحيث أن الذهن له وظيفة في ترتيب العقائد وتنظيمها وهو يجعل من الدين علما موضوعا. يرى جيمس أن الإعتقاد بالدين كائن في مكافحة الإنسان لعنصر الشر الذي فيه وهذا يتم بإستغلال العنصر الطيب فيه الذي يتصل بالعالم المنظور.

من هنا يرفض بيرس فلسفة الدين التي جاء بها جيمس كونها تجمع بين العلم والدين فبراغماتية بيرس تهتم بالعلم مهملتا الجانب الديني.

يعد جيمس رمز هام لمدرسة فلسفية جديدة في العالم الناطق باللغة الإنجليزية ويعتبر جون ديوي من أقوى أنصاره في أمريكا وفي إنجلترا شيلر، وقد تطرق في فلسفته الدينية إلى ثلاث مذاهب، الأديان السماوية، علم اللاهوت، المدرسة الهيغلية الجديدة، فكيف نظر جيمس لهذه المذاهب الدينية؟

لايفرق جيمس بين اليهودية والمسيحية والإسلام ويطلق عليها إسم الدين السماوي أو المذاهب المؤلهة، وتقوم هذه الأديان على أداء طقوس مفروضة سواء كانت تقديم قرابين أوعبادات أو صلوات وأن مقدار إخلاص المعتقد يقاس بمقدار طاعته لهذه الأوامر وبعده عن النواهي الممونة في الكتب.

ويعتقد جيمس أن إيمان الناس في العصر الحديث بالأديان بدأ يزول وهذا لأنها تقوم على أساس العقاب والتخويف، والنهضة العلمية أظهرت أن الإنسان واضع القوانين ولم يتلقاها من الله وهي خاضعة للتغير والتعديل وليست خالدة[18].

لقد حصر جيمس أدلة اللاهوت على وجود الله في ثلاثة أدلة، دليل العلة، التدبير القانون الخلقي ويعرض دفاع الأباء عن صفات الله أيضا فقد أخذ اللاهوتيون صفات الله كما جاءت في الكتب المقدسة، فقالوا إن الله هو العلة الأولى مختلف عن جميع مخلوقاته لأن وجوده من ذاته، كما أنه غير محدود من خارج وغير محدد من داخل وبتالي تؤدي هذه اللانهائية في الله أن يتصف بالكمال التام.

يتصور جيمس أن المذهب الهيغلي الجديد هو التيار الفلسفي الذي يدافع على أساس روحي ديني للفلسفة دون الرجوع إلى نصوص الدين أو العقائد المنقولة من الكتب وإنما بطريق البرهنة المنطقية الجدلية المستندة إلى فلسفة المطلق[19].

موقف جيمس الحقيقي من فلسفته الدينية هو الوصول إلى علم الأديان فهاجم الفلسفات المطلقة على أنها فلسفات مدمرة للإبداع الإنساني لتجاهلها الواقع الخصب المتغير وهذا يتناقض مع فلسفته التي يحترم فيها الإنسان ويحمله مسؤولية تطوير العالم.

يرى ما يؤيده الدين يتفق مع العلم ويتعامل معه وما يتعارض مع العلم يرفضه ويحمل الفلسفة مسؤولية بهذا يقول جيمس:"يجب على الفلسفة أن تتخلص من الميتافيزيقا والإستدلال القياسي للنقد والإستنتاج وبصراحة تحول نفسها من اللاهوت إلى علم الأديان فإنها تجعل نفسها نافعة بدرجة كبيرة"[20].

من خلال هذا تتضح فلسفة جيمس الدينية من حيث إرتباطها بالمنهج العلمي ويتجلى هذا في نقده للفلاسفة العقليين واللاهوتيين ليقدم لنا علم الأديان المرتبط بالمنهج العلمي هكذا إتصفت فلسفته بالتجريبية. الإشكالية الفلسفية التي قدمها جيمس للفلسفة الدينية تتماشى وفق نمطين المادية والمثالية أو التجريبية العقلانية ، فالفلسفة الدينية بنظر جيمس تفتقر إلى أسلوب الفعل أو الحركة، فهي فلسفة توفيقية تحاول إيجاد معادلة بين التجريبية والعقلانية بينما نستطيع برأي جيمس أن ندفع هذا المفهوم إلى مدى أبعد يتمثل في الإطلاقية الدينية خارج نطاق الفكر الفلسفي فهذه المعادلة هي:

العقلانية = التقنية – التصفية – التأمل – الإطلاق

التجريبية = المادة الخام – التجربة – الفعل– التعددية

إنها عقلانية دينية إطلاقية ومن جهة أخرى تجريبية ذات صلة بالوقائع، إن البراغماتية تنطلق من المحسوس والمادي عبر التجربة للوصول إلى نتائج تعود بالنفع على الإنسان والميتافيزيقا تتعامل مع المجرد والمطلق، فالبراغماتية التجريبية تنطلق نحو المطلق الميتافيزيقي بإتجاه معاكس للعقلانية[21].

يرى جيمس أن الدين السائد في الأوساط الفلسفية هو ما يراه الفيلسوف الإنجليزي "جرين" Green و"جوزيا رويسJosaya Royce " في أمريكا وتصور أنهما أراد أن يخلصا الدين من الوجدانات الفردية من جهة ومن العقائد المنزلة من جهة أخرى، فأخذ على عاتقهما إقامة الدين على أساس موضوعي بمعنى إقامته على أسس عقلية وأن القول بالمطلق متضمن في القول بالإله.

من خلال هذا نقول أن جيمس يقر بأن الإعتقاد عنصر أساسي في طبيعة الإنسان وأن الإيمان مطلب مشروع للإنسان، وقد فشلت الفلسفة اللاهوتية والمطلقة في إقرار العقائد الدينية وبتالي فإن الذهن لا يقرأ العقائد، وإنما وجدان الإنسان هو الذي يوصل إلى الإعتقاد الديني.

يفرق جيمس بين نوعين من الدين، الأديان السماوية والديانة الشخصية يقول:

"سأتجاهل الدين السماوي تماما في المحاضرات ولن أعني كثيرا باللاهوت ولا بالأفكار حول الألهة ذاتها وسأحدد نفسي ما وسعني الجهد بالديانة الشخصية البسيطة"[22]

يبدو أن جيمس لا يعترف بالديانات السماوية وإنما يقر بالديانة الشخصية لهذا نجده من خلال بعض المحاضرات التي كان يلقيها على المستمعين أسلوب خاص من الخطاب يتخلل قلوبهم في مجال الدين ويؤثر فيهم.

ما الدافع الديني أو الوجدان الديني أو النزعة الدينية في الإنسان؟

العاطفة الدينية لا تتكون من شيء ذي طبيعة سيكولوجية خاصة ولا نعتر على نزعة تسمى النزعة الدينية في الإنسان، فالدافع الذي جعل جيمس يهتم بالدين دافع ذاتي فردي يتمتع برؤية خاصة كونها راحة نفسية، لهذا نجده في إحدى تعريفاته للدين أنه مجموعة وجدانات وأفعال وتجارب يعاينها الأفراد في وحدتهم كلما أدركوا أنهم على علاقة مع أي شيء يعتبر إلهيا، ويعرفه أيضا أنه الإعتقاد بعالم غير منظور وأن خيرنا الأسمى كائن في إيجاد الملائمة الناجحة بيننا وبين ذلك العالم[23].

النتائج التي وصل إليها جيمس في فلسفته الدينية هي أن الدين في جوهره إعتقاد في عالم غير منظور وأنه توجد علاقة بين الإنسان وعالمه، ويرد تثبيت العقائد في نفوسنا إلى الوجدان، فهو الذي يتبث الإعتقاد الديني وليس الذهن أي في طبيعة الإنسان مجالات غير ذهنية لتصل إلى العالم الخفي.

كتب جيمس سنة 1883بعد موت أبيه إلى زوجته:"سيضاف إليك عمل واحد جديد بعد الآن أو بالأحرى ليس عملا جديدا بقدر ما هوعقلنة جديدة لعمل قديم، يجب عليك ألا تتركيني حتى أفهم شيئا أكثر عن قيمة ومعنى الدين"[24].

من هذه الرسالة نقرأ في طياتها ماذا كان يريد جيمس أن يبين، فهو يرى الدين ليس بمنظور عقلي وإنما ذاتي شخصي مرتبط بما يجري في داخل الإنسان الفرد، فلا يهمه فيه الجانب الإجتماعي، إنه الطريقة التي تقع بها الحياة من نفس صاحبها كحالة الحزن أو كأبة ووحشة أو ما يصيبه من إخفاق وفشل أونجاح وتوفيق.

نوع الدين الذي كان يهتم به كان أقرب إلى التقوى البسيطة للمذاهب الإنجليزية مما هو للتحررية الدينية الحديثة، فالدين حدثا ظاهرا منظور واضح المعلم في تاريخ الفرد لاسبيل إلى نسيانه. لهذا رفض جيمس تفسير المذهب العقلي للدين فهو يؤكد على أنه أمر شخصي يتصل بالحياة وكل منا يعيش بحسب مزاجه الخاص ليحقق هذه التجربة الفردية.

يمثل التصوف حسب جيمس جوهر الدين الشخصي، فهو يهتم بالفرد كونه عنصر فعال في المجتمع والحقيقة الصوفية لا يمكن نقلها إنطلاقا من طبيعتنا وفي هذا يقول جيمس:"أن هذا التعذر في إبلاغ أو قول النشوة هو الملاحظة الرئيسية للصوفية كلها والحقيقة الصوفية توجد للفرد أي لديه حالة الإنتشاء ولكن ليس لأي فرد أخر، هذه الحالة تشبه المعرفة المعطاة لنا بالأحاسيس أكثر من تلك المعطاة بالتفكير المفاهيمي"[25].

يبدوا أن جيمس يؤكد على أن التصوف لا يحدث لجميع الناس وإنما يقتصر على أفراد معينين يحسونها ويعيشونها حتى يصبحوا في مرتبة القديسين وقد حدد جيمس الصوفية في أربعة عناصر هي: الأوصفية، السمة الفكرية، سرعة الزوال، الإستسلام.

يؤكد جيمس من خلال التجربة الدينية أن الدين الحقيقي عنده هو الذي يترك أثارا حسنة تحقق السعادة والطمأنينة في حياة الفرد والمتدين هو القديس الذي يكون تدينه صحيحا ومجزيا وتكون إنفعالاته حسنة في حياته. القداسة عند جيمس لها مظاهر كحب الله والوفاء إليه وصفاء القلب والإخلاص والطاعة والشعور بوجود قوة عليا تخضع لها دائما.

يجد جيمس في كتابه "صنوف من التجربة الدينية" أن إفتراض وجود الله الذي يجعل من الممكن أن ننسب صفات هذه الظواهر كالقداسة والتصوف إلى قوة لا تعمل فيها ذواتنا بوعي والملاحظ أن جيمس غامض حول قضية طبيعة الله فهو في بعض الأحيان يفترض أن هناك ألهة متعددة في الكون أدت إلى وجود الشر في العالم، ومن ناحية أخرى الله موجود في العالم بمعنى واقعي أي أنه يوجد مستقلا عنا مع أنه مألوف لمثلنا العليا وهذا حسب ما تتطلبه حاجات الدين العملية.

هل الله موجود في نظر جيمس؟ ما علاقته بالإنسان؟ كيف يثبت وجود الله؟ ما صفاته؟ هل هو الذي يتحكم في تنائيه الخير والشر؟

يرى جيمس أن فكرة الله صحيحة إذا كان مفعولها يسري في سلوك الفرد بصورة إيجابية يقول:"إذا كان فرض الله يعمل إكفاءا ورضا في أوسع معاني الكلمة فهو فرض صحيح. [26]"

جيمس لا يعتبر فكرة الله مفارقة عن الإنسان بل لها مكانها في جوهر الإنسان نفسه نابعا منه وهكذا جعل من إله الإنسان مغلق على ذاته وذهب إلى القول:" إن البراغماتية لا تتحرج من إعتبار إله يعيش في صميم نجاسة الواقع الخاص أو الحقيقة المخصوصة، إذا كان ذلك يبدو أنه المكان المرجح أن نجده فيه" [27] .

هكذا يبقى الإله الذي أمن به جيمس كعنصر فعال في التجربة الدينية لكن الإيمان بإله واحد مطلق يخلق مشكلة الشر وبتالي فهو مسؤل عن ما يقع أو عاجز عن توقيف الشر ويذهب جيمس إلى القول:"يخلق ذلك مشكلة الشر، فالشر في نظر التعددية يمثل فقط مشكلة عملية هي كيفية التخلص منه"[28]. من خلال هذا القول يتضح أن الإله الشامل يكون مسيطرا عن كل ما يقع في هذا العالم ، لكن كيف نقضي على الشر؟

جيمس يعتبر الحقيقة العقلية هي جزء من العاطفة الدينية التي إعتبرها هي المبدأ والمنطلق الحقيقي لكل دين، فإله الحقيقي هو الذي ينبع من داخل الفرد ولا تمليه عليه الأدلة العقلية أو المنطقية. في سنة 1881 ألقى جيمس محاضرة على مجموعة من أصحاب الدين المسيحي بعنوان الأعمال العكسية والإيمان بالله، حاول من خلالها أن يتبث وجود الله بعملية سيكولوجية بعيدة عن الإيمان اللاهوتي الشائع لوجود الله الذي يعود إلى معرفة عقلية كما أتبت وقوع الفروض الدينية عند البراغماتيين.

يفرق جيمس بين صفات الله الميتافيزيقية والأخلاقية التي تستمد طبيعتها من الإنسان فهو يعتقد أن الله والإنسان من طبيعة واحدة، لكنهما يختلفان في الدرجة وبتالي فإله جيمس هو إله طبيعي وليس ميتافيزيقي.

يحدد جيمس صفتين جوهريتين العلم والقوة يتميزبهماالإله عن الإنسان يقول:"يمكن أن نعرف الإله بأنه قوة عالمة مدركة مغايرة لقوانا"[29].

الإله يتصف بالقوة وبالخير فقط بينما الإنسان يتصف بالخير والشر وعليه أن يقترب من الإله وأن يحاول التخلص من الشر ويحقق الخير، هكذا فإنه شخصية مغايرة للإنسان[30].

وجد جيمس أن التجارب الدينية تؤيد القول بوجود الإله ووجد أن له مكانا طبيعيا في نفوسنا فلا تستريح النفس ولا يطمئن العقل حتى يصل إليه ويمكننا أن نتصل به ونلجأ إليه في الشدائد فيساعدنا[31]. فالإله هو نوع من الكائنات الذي إذا وجد فعلا لابد أن يكون أكثر الموضوعات المناسبة لأن تدركه عقول مثل عقولنا على أنه أصل لهذا العالم، لكن ما خصائص الله؟

الله يتصف بالخير حسب جيمس عكس الإنسان الذي يتصف بالخير والشر لهذا من واجبه أن يرقى إلى ما يتصف به الإله، ويتخلص من الشر يقول جيمس:"إن الله نداؤنا الطبيعي، وسأسمي ذلك الجزء السامي من الكون الله"[32].

يعتبر جيمس الله شخصية ذهنية personalite mentale فقد حاول أن يقضي على الثنائية المتطرفة في الأديان السماوية بين الإله والناس، والدافع الذي جعله يصف الله بشخصية هو إعتقاده أن الإنسان والله من طبيعة واحدة وقد إستمد هذه الفكرة من " جون ستيوارت ميل" الذي وصف الله بشخصية، وما ميز هذه الفكرة هي أن الله رفيق الإنسان يساعده في التغلب على الشر في هذا العالم وليس مصدر خوف لنا وإنما مصدر حبنا لأنه رمز التفاؤل في حياتنا.

يبدوا أن جيمس حاول أن يثبت وجود الله من خلال علاقة العالم بذات الإنسانية ويضيف فكرة الصلاة التي يعتبرها هي الصلة الجوهرية بين الله والإنسان، بل هي ماهية الدين الصحيح وهو لا يقصد بالصلاة الدعاء، فالصلاة عنده شعور يوجد عند الفرد وعلاقته مع قوى يرتبط معها.

في هذا يذهب إلى القول:"إننا بصلاة نرى قوى غير منظورة ونرى أثر لها في حياتنا، حقا كل هذا شيء ذاتي ولكن لا ننسى أن الدين يجب أن يقوم أو يزول بالإقتناع بأن أثارا من نوع ما تحدث فعلا"[33].

يعتبر جيمس الدين تجربة فردية وجوهرها العاطفة الدينية لا الطقوس، وأن الشعور الديني شعور باطني بالمشاركة في موجود أعظم، وهو شعور بالإنسجام والسلام و التجربة الدينية أكثر واقعية من التجربة العلمية لأنها تبدأ بالجسم أي العاطفة والإحساس والفكر والتجربة العلمية تبدأ بالمجرد، والعلم تجربة ولكن الدين واقعة حية نعيشها[34] . بهذا دافع جيمس عن الدين، فقد كان عضوا نشيطا في منظمة خاصة أسسها في نيويورك لبحث الخبرة الصوفية، ودافع عن حق الإنسان في الإعتقاد بما يراه مفيدا له في حياته وسلوكه وحقه في الإيمان ببعض الفروض في الدين والأخلاق إذا كانت هذه الفروض نافعة والمعيار هنا هو أساس نفسي وحضاري.

يمكن القول أن جيمس لم يكلف نفسه عناء البحث عن الأدلة الأنطولوجية، والخوض في المجادلات والمنازعات الميتافيزيقية، والبحث في ما إذا كان الإله موجودا، أم غير موجود فعمله إتجه صوب معرفة الجانب النفسي بالإلهي"المتجاوز للحواسl'invisible وهذا راجع إلى كون المفهوم السيكولوجي للإعتقاد عند جيمس قائم على التعدد، الشيء الذي ميزه وأبرز إختلافه عن رجال الدين، فأعتبر مؤسسا لـ "علم النفس الديني" فإهتمام جيمس بالنتائج يدل على كون الإعتقاد بوجود الإله يجلب نتائج مرضية تساعد الإنسان على تحسين وضعيته الواقعية من جهة، ومن جهة أخرى إرتقائه بحالته النفسية فشعور الإنسان بالراحة لا يعد نتاجا للإيمان في حد ذاته، بل يعد نتيجة لإرتباط الإعتقاد بالعمل والسلوك وبتالي الجانب العملي في الواقع الذي نعيش فيه يبرز في التجربة الدينية التي تتعدد وتتنوع بتعدد الأفراد المتدينين داخل المجتمع. لم تكن دراسة جيمس في الدين دراسة دينية تقليدية أو دراسة رجل دين وإنما درس الدين وفق ما يتلائم مع مذهبه البراغماتي، وقد أعطى أهمية خاصة للمشكلة الدينية فكل تجربة دينية لها خصوصيتها وتميزها عن التجارب الأخرى بحيث يصبح كل فرد له نظرته الخاصة للدين. يقرر جيمس أن الدين أساس تجربة شيء يحسه المرء ويعيشه، إنه إحساس بتوافق تلقائي أو مجبول بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان الواقعي والمثالي، هذا الإحساس المزدوج يصبح في النفس المتدينة لب الحياة فالدين لا يوجد إلا مع وجود النفوس المتدينة والحياة الدينية.

الهوامش

1. مهران، محمد، ومدين، محمد، **مقدمة في الفلسفة المعاصرة**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط،2004، ص41

* **ولد تايلور في مدينة لندن سنة 1832 وعلى الرغم من أنه لم يتلق دراسة جامعية منتظمة ومنهجية، إلا أنه أصبح أستاذ علم الأجناس في جامعة أكسفورد من عام1896 إلى 1909 وهو رائد الإتجاه التطوري وأسهم في تطوير الدراسات المقارنة للأديان وقدم في مجال دراسة المعتقدات مفهوم الأنيمة (الأرواحية) نظرية لتفسير الديانة وتطورها العالمي ، وقد إستنتج من دراسته الميدانية لقبائل الهنود الأمريكيين أن جميع العقائد الدينية ظهرت نتيجة للتفسير الخاطئ لبعض الظواهر التي يتعرض لها الإنسان مثل الأحلام والموت، له مؤلفات عديدة منها :الثقافة البدائية، أبحاث في تاريخ البشرية القديم ، توفي سنة 1917**

2. السواح فراس، دين **الإنسان ، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني**، دار علاء الدين للنشر، دمشق،ط3، سنة2000، ص24.
3. **Encyclopedia of Religion and ethis**,edited by James Hasting, volume,X edinburgh T,T clark.N.Y.C seribner's Sons,1971(ART Religion) p 662.
4. زيدان محمود فهمي ، **وليم جيمس**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، سنة2005، ص 114
5. موريس تشارلز، رواد **الفلسفة الأمريكية** ، ترجمة إبراهيم مصطفى إبراهيم ، مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية، مصر دط، سنة1996، ص 153 .
6. موريس تشارلز ، **رواد الفلسفة الأمريكية**، المرجع السابق ، ص 160
7. فراس السواح، **دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني**، منشورات دار علاء الدين، ط3، سنة1998،ص22

* **إيمانويل كانت ولد سنة 1724 ، في كونيغسبرغ من عائلة فقيرة معروفة بدينها البروتستانتي، مؤسس المثالية الكلاسيكية الألمانية دخل إلى مدرسة (فريديريك) التي يديرها (ألبير شولتز) البروتستانتي التطهري الذي أثر في (كانط) تأثيرا كبيرا ، دخل بعد ذلك إلى جامعة (كونيغسبرغ) سنة 1740، فتابع دروسا في الفلسفة والعلوم**

خاصة العلم النيوتوني، تخرج من الجامعة سنة 1746، ثم إشتغل بعدها بالتدريس والكتابة الحرة وفي عام 1770 ، عين أستاذا بالجامعة لعلوم المنطق والميتافيزيقا ، أهم مؤلفاته "الدين في حدود العقل"، "نقد العقل الخالص"، دروس في النظرية الفلسفية للدين " توفي سنة 1804.

8. محمد عثمان الخشت، **مدخل إلى فلسفة الدين**، دار قباء، القاهرة ، مصر ، دط، سنة2001، ص50 .

9. Jean Greisch, **le buisson ardent et les lumières de la raison**, **L'invention de la philosophie de la religion**, tome 2,les éditions du cerf, paris,2002, p423.

10. رالف بارتون، بيري ، **أراء وشخصية وليام جيمس**، ترجمة محمد على العريان ، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، دط سنة1965، ص299.

11. محمد عبد الحفيظ، **الفلسفة والنزعة الإنسانية الفكر البراغماتي نموذجا**، دارالوفاء، الإسكندرية، مصر،ط1،سنة2006،ص75

12. جيمس وليم ، **العقل والدين**، ترجمة محمود حب الله، دار إحياء الكتب العربية ، مصر، دط، سنة1949، ص6

13. إبراهيم زكرياء، **دارسات في الفلسفة المعاصرة**، مرجع سابق ، ص43

14. الشنيطي ، محمد فتحي، **وليم جيمس**، دار الحمامة للطباعة، مصر، ط1، سنة1975، ص166

15. James William, **the Will to Believe** ,p28.

16. الشنيطي ، محمد فتحي، **المعرفة** ، مكتبة القاهرة الحديثة، مصر، ط3، سنة 1962 ، ص207

*__رالف بارتون بيري Ralph Barton Perry فيلسوف أمريكي ولد سنة1876في مدينة فرمونت، يعتبرزعيم المدرسة الجديدة من الواقعية في الفلسفة البراغماتية، حصل على الدكتوراه سنة1897 من جامعة هارفرد ، ثم أصبح مدر س الفلسفة فيها، أهم مؤلفاته شخصية وأفكار وليم جيمس، إنسانية الإنسان، توفي سنة 1957__.

17. بيري، رالف بارتون، **أراء وشخصية وليام جيمس**، مرجع سابق ، ص272

18. محمود فهمي زيدان ، **وليم جيمس** ، مرجع سابق، ص130

19. ibid, James William , Varieties **of Religious Experience,** p454

20. وايت، مورتن، **عصر التحليل**، ترجمة أديب يوسف شيش، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، سوريا، دط سنة1975 ، ص42

21. ibid, James William, **the Will to Believe** ,p20

22. ibid, p20.

23. محمود فهمي زيدان ، **وليم جيمس** ، مرجع سابق، ص126

24. بيري، رالف بارتون، **أراء وشخصية وليام جيمس**، مرجع سابق ، ص349

25. ibid ,James,william, **, the Varieties of Religious Experience** , p 280.

26. جيمس وليم ، **البراغماتية** ، مصدر سابق ، ص348

27. المصدر نفسه ، ص 107

28. جيمس وليم، **بعض مشكلات الفلسفة** ، مصدر سابق ، ص119

29. جيمس وليم، **العقل والدين** ، مصدر سابق ، ص 90

30. محمود فهمي زيدان ، **وليم جيمس** ، مرجع سابق ، ص177

31. جيمس وليم ، **إرادة الإعتقاد** ، مصدر سابق ، ص10

32. James,william, **the Varieties of Religious** Experience , p502

33. Ibid, p506

34. بيري، رالف بارتون، **أراء وشخصية وليام جيمس**، مرجع سابق ، ص356